من تراب الطريق! (٢٩٢)

الدين والدولة (*) والمصالح و الناس !

يبين للمتأمل أن الدين بعامة لا يأخذ مساحته كدين جديد لقوم أو لمحيط، إلاَّ مع إيجاده لمعتنقيه مصالح وأغراضاً جديدة خاصة لم تكن لديهم أصلا من قبل .. أو لم تكن بالقدر الكافى أو بهذا القدر من القوة التى تصاحب الدين الجديد .. والذى يوجد لهم أيضا فى ذات الوقت مُثُلاً أخلاقية جديدة تعيش فى ظلها هذه المصالح والأغراض، أو يوجد صوراً جديدة لمُثُل أخلاقية قديمة تعيش فى ظلها هذه المصالح والأغراض وتنمو وتقوى وتتكاثر .

لذلك رأينا أن كل دين يشكل حتما وفى النهاية " حركة سياسية "، ويخلق حتما وجوداً جديداً فى المحيط السياسى .. والملاحظ أن معظم " المقاومات " التى شجرت أو شبت فى مواجهة الأديان !- صدرت من منطلق الاعتراض أو التحفظ على الحركة السياسية أو الوجود السياسى!

هذا وخروج الدين - أى دين - من المحيط السياسى، معناه أنه فقد جدته .. أى فقد ركنى هذه الجدة وهما : المصالح والأغراض الخاصة بالمتدينين به والمُثُل الأخلاقية التى تعيش فى ظلها هذه المصالح والأغراض الخاصة بالمتدينين.. هذا يحدث حتما حينما تتسع دائرة انتشار الدين وتعتنقه الأغلبية الغالبة، ومن ثم تصير تلك المصالح والأغراض أغراضاً ومصالح للمجتمع كله، وتصير فى كفالة القوى السياسية التى لديها القدرة والقوة الفعليتان -

---

(*) المال ٢٠٠٩/٧/٩

على قيادة الناس وتدبير شئونهم ومصالحهم والسيطرة على المحيط السياسى سيطرة تتناسب تناسبا طرديا مع مقدار ما تمتلكه القوى السياسية من قدرة وقوة .

ولا يوجد تلازم حتمى فيما يتعلق بالدين الجديد، بين إيجاد المصالح والأغراض الجديدة والمثل الأخلاقية الملائمة لها، وبين أن تكون نشأة هذه المصالح على يد صاحب الدعوة أو الرسالة أو الداعى إلى الديانة .. بل إن المثل الأخلاقية تسبق فى تشكيلها نشأة المصالح والأغراض .. فهذه المثل الجديدة هى التى تنشأ وتنبت ثم تنمو وتتكاثر من حولها هذه المصالح والأغراض .. فصاحب الرسالة أو الدعوة لا يتقدم إلى جمهور المتلقين بمصالح وأغراض، وإنما يتقدم إليهم بالمثل الأخلاقية والقيم الدينية التى من خلال اعتناقها وانتشارها واشتداد عودها - تنبت وتتنامى من حولها، مصالح تدفع أشخاصا آخرين غير النبى أو صاحب الرسالة - فى اتجاه ما تشكله المصالح والأغراض الجديدة من قوة اجتماعية تساندها فتصير حتما وفى النهاية - موجوداً جديداً فى المحيط السياسى .

على أن انتصار المصالح والأغراض الجديدة، هو فى ذاته شوكة أو نفوذ أو سلطان دنيوى .. فإذا بلغ هذا الانتصار مبلغا مؤثرا - استجدَّ معه التسيّد على مقدرات المجتمع .. عندئذ تصير الدولة ـ أى دولة ـ محكومة فى الدرجة الأولى بتلك المصالح والأغراض الجديدة التى تنامت وقويت واشتد عودها وصارت بحكم اعتناق الأغلبية الغالبة لها تعبيرا عن المجتمع وحاكمةً بالتالى للدولة .. والواقع أن الدولة موجود سياسى فقط، يسوس ويدير واقعه، ويدبر الأمور العامة المشتركة للخاضعين لشوكة هذا الموجود السياسى وسلطانه .. ووفق السياسة التى يرسمها هو بحسب ظروفه وحاجاته وأطماعه ومُثُله .. ويكون ذلك كله ممتزجا على الدوام ومخلوطا على نسب تقديرية بحتة .. لأن الكلمة الأخيرة تكون للجهة صاحبة الشوكة والسلطان النهائيين .. وهى دائما وأبداً شوكة سياسية دنيوية وسلطان سياسى دنيوى .

ولكن أى شوكة سياسية أو سلطان سياسى، لا يستطيع بلا عقاب عاجل أو آجل - أن يتحدى بطريقة أو بأخرى ظروف أتباعه وعواطفهم القوية طويلة العمر .. دينية أو غير دينية .. لأن الشوكة ليست ولن تكون شوكة إلاّ بطاعتهم، والسلطان ليس ولن يكون سلطانا إلاّ بمساندتهم ومساعدتهم، وهنا يكمن الفارق الجوهرى بين النظم الدكتاتورية التى تتوسل إلى ما تريد بفرض الشوكة والسلطان بالقوة والقهر والاستبداد، وبين النظم الديمقراطية التى تتغيا مساعدة وتعاون وتجاوب الناس عن فهم وحب واقتناع !